ملحق

بالتالي

ترجمة الناظم

بقلم : **الدكتور عبد النصير احمد الشافعي المليباري**

ودراسة :

الفتح المبين مرآة منعكسة لمقاومة كيرلا

(16)

القاضي جمال الدين مُحَمَّد بن القاضي عبد العزيز الكاليكوتي المليباري

المبحث الأول: قضاة «كاليكوت»:

في «مليبار» عائلتان كبيرتان، إليهما يرجع الفضل الأكبر في الدعوة الإسلامية بها ونشر العلوم الدينية: عائلة آل مخدوم، وتتمركز في «فنان» ثم «ترورنغادي» وبعض قرى «مالافرم» — وقد تم تسليط الأضواء على تاريخهم بإيجاز فيما سبق، في ترجمة الشيخ زين الدين المليباري الكبير، والثاني أسرة قضاة «كاليكوت»، وتتمركز في مدينة «كاليكوت» وضواحيها.

وكانوا جميعا شافعية في الفقه وأشعرية في المعتقد بلا أدنى شك، ولكن لكل من هاتين الأسرتين ميزتان، هما: أن المخاديم كان يغلب عليهم النزعة الصوفية التربوية والعملية، وبنوا كل مؤلفاتهم وجهودهم على هذا الأساس، ولذا تجد من بين مؤلفاتهم نصيبا كبيرا للفقه والتصوف والإرشاد والسيرة، والجهاد بكل ألوانه.

وأما قضاة «كاليكوت» فهم مع كونهم صوفية وفقهاء في الدرجة الأولى، إلا أن لهم توجها عقليا وكلاميا أكثر مما لآل مخدوم، ولم نتمكن بعد من الاطلاع على جميع آثار ههذ الأسرة حتى نقيم أعمالهم بالدقة المتنهاية، كما وصل إلينا معظم أعمال المخاديم وعرفنا منهجهم، ولكني على قدر كبير من الطمأنينة حين أقول: إن قضاة «كاليكوت» كان منهجهم مبنيا على المزج بين التصوف والكلام معا.

ثم إنه قد حدث الالتقاء بين العائلتين مرات كثيرة في التاريخ، إما على وجه المصاهرة، أو تتلمذ واحد من هذه على واحد من تلك، وخير دليل على هذا الالتقاء استحسان المخاديم لـ«لسلسلة الفخرية» التي وضعها القاضي أبو بكر فخر الدين الكاليكوتي، واعتمد عليها في

حلقات دروس جامع «فنان»، ولله الحمد والشكر، ويتمتع مسلمو «مليبار» الآن بما تركت هاتان الأسرتان جميعا من العلوم والمعارف، يدا واحدة وكلمة واحدة.

وكم كنا نقول: إن الأشاعرة ليسوا على منهج واحد في كل عصر ومصر، المنهج يتغير حسبما يقتضيه الحال، إن احتيج إلى التأويل لرد شبهات المجسمة فالتأويل حتم لازم، وأما إذا كان في الأمر سعة فالخوض عنه أولى وأسلم، وقد بينت طرفا من هذا الحديث في مقدمة تحقيقي لـ«لرسالة التسعينية في الأصول الدينية»، فليرجع إليها من شاء.

المبحث الثاني: اسمه ونسبه:

وأما صاحب ترجمتنا فهو: العلامة القاضي الشيخ جمال الدين مُحَمَّد بن القاضي ناصر الدين عبد العزيز بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي فخر الدين أبي بكر المقدم، أشهر قضاة «كاليكوت» إطلاقا، الفقيه الأصولي، الحكيم المتكلم، المفسر المحدث المؤرخ، الأديب اللغوي، الناظم الناثر، الصوفي المربي.

المبحث الثالث: مولده ونشأته:

ولد القاضي مُحَمَّد عام 980هـ/1572م، بـ«كاليكوت»، وبعد تلقي العلوم الابتدائية من والده الماجد درس أمهات الكتب التراثية على الشيخ الإمام عثمان لبّا القاهري – نسبة إلى قاهر فتن – رحمه الله، ويذكر أنه تتلمذ للشيخ زين الدين الثاني صاحب «فتح المعين» أيضا.

المبحث الرابع: مؤلفاته:

وهو صاحب تصانيف كثيرة تنيف على خمسين، وأكثرها منظومات؛ منها قصيدة:

«إلى كم أيها الإنسان على التسويف والنسيان

وترجو العفو والغفران وتعصي ربك الرحمن

ومن مؤلفاته:

(1) مقاصد النكاح.

(2) وملتقط الفرائض.

(3) ولطف الحكم في نظم الحكم، لابن عطاء الله السكندري ﷺ. وعدد نظمه ألف وثلاثون بيتا.

(4) والإكسير الأعظم في الصلاة على النبي المعظم؛ وهو نظم الكبريت الأحمر.

(5) وكيمياء السعادة في الصلاة على الحبيب الأكرم.

(6) والفتح المبين للساموتري الذي يحب المسلمين وعدد نظمه خمسمائة وخمس وعشرون، وقد طبع ضمن «جواهر الأشعار» للعلامة الشيخ عبد القادر الفَضْفَرِي %[1].

(7) وتنبيه الإخوان في أحوال الزمان.

(8) ودعاء التضرع والابتهال.

(9) وسلسلة القادرية وسلسلة الهمدانية.

(10) ونظم قطر الندى.

(11) ونظم الأجناس في علم الصرف.

(12) ونظم عوامل الشيخ الجرجاني. وقد شرحه العلامة مدرس حرم الله الشيخ مُحَمَّد بن علان البكري الصديقي المكي الشافعي، المتوفى سنة 1057هـ بالنظم، فمنه قوله في شرحه:

عوامل ألفها الجرجاني   كأنها قلائد الجمان

وكان ممن للورى قد نظما   عقودها يبغي النوال الأعظما

مُحَمَّد القاضي بكاليكوت   فإنه من أكرم البيوت

([1]) طبع هذا الكتاب في سي. يم. برس، تروتامكور/كيرالا/الهند، في عام 1358هـ.

محرر أحكام شرع الله يقضي بها يرجو عطاء الإله

عبد العزيز أبوه وهو القاضي وكم له من حجج مراضي

وكان محي الدين نجل القاضي مُحَّد حج بعزم ماضي

وعنده أشرفني على ما جاء به أبوه حقا ناظما

فاخترت شرح نظمه بالنظم تحفة ذي الألباب أهل الفهم

(13) زبد المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر

(14) محيي الدين مالا – يعني منظومة في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني –بالمليبارية، وهو طويل، ذو فائدة كبيرة في العقيدة والتصوف والتاريخ وآدب اللغة المليالمية، وقد تصدى لشرحه بعض العلماء المعاصرين شرحا طويلا مفيدا[1].

(15) منظومات في تجويد القرآن

(16) في علم الحساب.

(17) في علم الأفلاك والنجوم وفي علم الخطوط والرسائل،

(18) الفصيحة في الوعظ والنصيحة.

(19) نصيحة المؤمنين

(20) مدخل الجنان، وكتب في الجهاد وسيرة النبي ﷺ ومدحه ومولده وغيره من الخطب والرسائل.

توفي القاضي % ليلة الأربعاء الخامسة من ربيع الأول سنة 1025هـ/1616م[2].

([1]) وهو أم. بي. مصطفى الفيضي، وطبع هذا الشرح أكثر من مرة في مليبار.

([2]) انظر في ترجمة القاضي مُحَّد أسماء المؤلفين في ديار مليبار للشيخ أحمد كويا الشالياتي، ترجمة رقم: 3، انظر نزهة الخواطر لعبد الحي: 411/1، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان: 233/3 وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 342/7، أعيان مليالم لمحمد على مسليار: 32-36، شجرة «الوصول إلى الرسول بالسند المقبول» للأستاذ ياسين بن عبد العزيز الكانوري، الباب الخامس من «مساهمة علماء مليبار في الأدب الفقهي» لحسين مُحَّد الثقافي.

الفتح المبين : مرآة منعكسة لمقاومة كيرالا

منصور أمين ك
(أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية يم. يي. يس ممباد(الحكم الذاتي)، ممباد، ملبرم)

التمهيد

الحمد لله الواحد القهار والعزيز الجبار وغافر الذنب وقابل التوبة وشديد العقاب، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وعلى آله وصحبه الشرفاء..وبعد.

هذه محاولة ساذجة لقراءة تحليلية لملحمة كيرالا المشهورة "فتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين" للقاضي محمد الكاليكوتي، وقد أقر المؤرخون أن فتح المبين مرآة قلقة تزخر فيها تجارب أهل كيرالا ولا سيما المسلمين في عهد الاحتلال البرتغالي، وصورة واضحة تنعكس فيها فتح المسلمين على قلعة البرتغاليين، حقا أنها مثل ملائم للشعر المقاوم، وأضحى الشاعر معظم أوقاته لتأليف هذه القصيدة التاريخية رغم أن حياته مملوءة بالنشاطات الحكومية.

القاضي محمد الكاليكوتي

ولد القاضي محمد بن عبد العزيز في كاليكوت في أسرة قضاة كاليكوت، وهو حفيد القاضي أبو بكر بن رمضان، وتعلم المبادئ الإسلامية من أبيه القاضي عبد العزيز ثم قرأ على الشيخ عثمان لبا القايلي وعلى الشيخ عبد العزيز المعبري، وأتقن في علم الحديث والتفسير والفقه وعلم الأفلاك والفلسفة وعلم الحساب وعلم النجوم. ومع كلها بذل الرمق الأخيرة لتربية اللغة العربية ولتحمية ولاية كيرالا وسكانها.

عينه الملك السامري قاضيا رسميا لمدينة كاليكوت، وأخذ المسجد الجامع بكوتشيرا (Kuttichira)مقرا لهللقضاء والإفتاء، واستمر القضاء حتى لبى لنداء ربه.

وهو الأديب المرموق الذي فاض من ريشه تأليفات جذابة ووقارة، وترك القاضي محمد لنا نحو خمسين كتابا إلا أن معظمها ضاعت في مر الزمان ولم يصل إلينا إلا القليل وأهمها:

- ملتقط الفرائض
- نظم الأجناس
- نظم قطر الندى
- مدخل الجنات
- منظومة في تجويد القرآن
- منظومة في علم الأفلاك والنجوم
- منظومة في علم الحساب
- منظومة في الخطوط والرسائل
- نظم العوامل
- إلى كم أيها الإنسان: تحتوي 80 قصيدة رائعا، وهي قصيدة قرضها الشاعر نصيحة لإخوانه المسلمين الذين على الحياة المادية ولا يعملون شيئا للحياة الأخروية. والقصيدة ذات عاطفة نبيلة يوجد فيها خيال رائع، ويصور الإنسانية تصويرا بديعا ويبعث في نفوس القراء الذكر عن الموت، وشرحها القاضي أبو بكربن محي الدين الكاليكوتي وسماه " نصيحة الإخوان إلى كم أيها الإنسان".[1]
- مرثية على الشيخ عثمان لبا القايلي: وهي قصيدة رثى بها الشاعر أستاذه العالم الكبير عثمان لبى، ويقول الشاعر فيها أن أستاذه الفقيد شخص عظيم عديم المثل وكان يحط إليه الناس من بقاع بعيدة.
- مقاصد النكاح: وهي قصيدة طويلة يشتمل على أحكام النكاح على المذهب الشافعي تحتوي على 252 بيتا.

فتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين

لا شك أن هذه القصيدة شرارة في الهشيم، وهي رصاصة ضد الاحتلال الأليم، هذه القصيدة قصيدة حربية في بحر الرجز، تبلغ 537 بيتا، ويبين فيها أحوال المسلمين تحت السامري الذي كان على علاقة طيبة وثيقة بالمسلمين، ويبين وصول البرتغاليين إلى ساحل كيرالا وأعمالهم الوحشية مع الأهالي، ولا سيما مع المسلمين.

يعني الشاعرب"الفتح المبين" فتح قلعة تشاليات سنة 1571م بعد قتال مستمر بين البرتغاليين والمسلمين، وهذه القلعة تقع على الضفة الجنوبية لنهر تشاليات بعد الحلف مع راعي أني راما(Unni Rama)الذي كان من إمارة السامري. ولم يصرح الشاعر تاريخ نظم هذه القصيدة، والمؤرخون يختلفون فيه.

وكانت مخطوطة إلى أن طبعها المولوي عبد القادر الفضفري وجمعها في كتابه جواهر الأشعار. وقد ترجم أولا هذه القصيدة إلى اللغة المليبارية المؤرخ والباحث المشهور ك.ك. محمد عبد الكريم الكندوتي سنة 1986م، ثم نشر الدكتورعبدالعزيز ترجمة مليالمية سنة 1992م مع مقدمة تفصيلة للدكتور غنغادرن (Gangadaran).[2]

وإذا قرأنا هذه القصيدة الجذابة نرى أنها ألفت لهذه الأعراض الهامة:

- ليسمع الملوك والسلاطين الذين تخاذلوا عن نصرة إخوانهم في الدين.
- أن يذيع أخبار السامري في الآفاق وفي بلاد العرب.
- الإشادة والإمتداح بفضائل الملك السامري.
- معاملة البرتغاليين الشنيعة مع أهل كيرالا ولا سيما مع المسلمين.
- تحريض المسلمين بقول كل أعمال الإنسان عبادة إذا قصد بها وجه الله.

بداية القصيدة

تبدأ هذه القصيدة بالحمد على الله والثناء عليه بما يليق به سبحانه وبذكر صفات الله عز وجل ما يدل على ملكوته وجبروته وسيرته في الأمم الغابرة وهو قاصم الملوك والجبابرة وقاسر الأقيال والأكاسرة، وأهلك عادا أولا ثم ثمود وقوم نوح بظلمهم وطغيانهم في الأرض:

الحمد لله القوي القـادر   المالك المغني العلي القـاهر
القاصم الملوك والجبابرة   وكاسـرالقيـول والأكاسـرة
وهو الذي ما شاءه يكون   وكل مـا لا فـهو لا يكون

ثم يصلي على النبي المصطفى وآله وصحبه:

ثم صلاة الله مع سلام
على النبي المصطفى التهامي
محـمد وآلـه الأبرار
وصـحبه والتـابع الأخيار[3]

ثم بذل الكاتب معظم أبياته لمدح السامري خاصا ولذم البرتغاليين عاما، ونعرف أن الحروب المستمرة التي جرت هنا ضد البرتغال في القرن السادس عشر لإثبات استقلال شاطئ كيرالا والبحر العربي هي أهم فصل في تاريخ كيرالا السياسي وفي هذه الحروب كانت مساهمة مسلمي مهابلا برئاسة ساموتري هو الذي حدد حقيقة سير تاريخ الهند في العصور الوسطى. وبسبب هذه المدافعة لم يتحول كيرالا إلى مركز احتلال برتغالي مثل جووا.[4]

في مدح السامري

وإن هذا الشاعر الذي يحب ساموتري من أعماق قلبه لم يؤلف هذا التأليف إلا لحيازة رضى الرب تعالى ويصف الشاعر ملكه كما يأتي:

وعلمها تسـير في الآفاق
لا سيما في الشــام والعراق
ويعلموا لهمة السـلطان
السامـري المشـهور في البلدان
صاحب كاليكوت المشهور
لا زال من فضل الغني المعمورة
وهو محب ديننا الإسـلام
ومسـلمين بين ذا الأنــام[5]

ويصف أوصاف الملك وفضائله كما يقول:

ناصر ديننا ومجري شرعنا

حتى بخـطبة على السـلطان

والمسلمون كلهم رعيتـه

وإن يكـن في أي أرض بلـدته

ويرجى لهدايته:

والله يهـديه هداية الأبـد

ويجرين أمـوره على السـدد

فواجب على جميع المسلمين

أن يدعـوا بمثـل ذايا مسلمين

لأنه مـع كفره يحـارب

والملك المسـلم لا يحـارب

ويصف الشاعر بسداد رأي السامري وحسن تدبيره وشجاعته وصبره إنه كان يخبر الأعداء بوقت الحرب وموعدها ليستعدا لمواجهة الآخر ولقائه، ولا يفعل ذلك من ملوك كيرالا إلا السامري لثقته بنفسه وقوته في حين يهاجم غيره من الملوك على الأعداء خدعة، يقول الشاعر:

ويخبر الأعدا بوقت حـربه

ليسـتعد خـصمه بـحربه

فخرا لدى الملوك بالشجـاعة

إذ حرب غير السامري بالخدعة

ثم السلاطين الصغار في القرى

يخدمه في الـحرب مثل الأمرا

يصرف بالشعـور والجـريمة

عـلى وجوه الخير والأطعمة

ذو الرأي والتدبير والشجـاعة

والصـبر والعفو لدى الشفاعة[6]

قدوم البرتغاليين ومقاومتهم

والبرتغاليون دخلوا أرض كيرالا باسم التجارة ولكنهم ستروا أنياب الاستعمار، وشبهم الشاعر بأسراب الجراد، ومعلوم أن أسراب الجراد إذا جاءت منطقة زراعية أكلت كل رطب وأخضر.

ويعرف نفسهم أمام السامري بأنهم من التجار يحبون التجارة ومتاعها، وقاموا أمام السامري كالعبيد حتى جمعوا قوتهم وتشتدوا أزرهم، ثم انقلب إلى مرحلة المنافق فورا:

فقام العـبيد حتى يجتمع   قوتـه كاملـة ثم ارتفع

وقمع البلدان حتى الصين   وهنـد وسنـد بغير مين

ويشبه الشاعر البرتغاليين بالكلب الذي يعض صاحبه:

ثم غدا مخالـف للسامري

من بعد ما كان كعبـد صاغر

ولم يزل يفعـل ما يضره   ويسـعى إلـى الذي يغره

ككلب من رباه لانتفاعه   وهـو يعض دائما لرجله[7]

ويصور الشاعر طول أبيات هذا الشعر مكر البرتغاليين على السامري والمسلمين معا، حتى نجحوا في بناء القلعة الكبرى، ثم خطوا خطوة وفرضوا بعض الإجراءات القمعية على التجار المسلمين، كما وجبوا عليهم الضرائب ومنعوا المسلمين من سفر الحج إلى بيت الله الحرام، وأقبح من ذلك أن حاولوا قتل السامري باستدعائه إلى قلعتهم لقبول هدية سنة 1517م، ولكن الله تعالى سلمه من ذلك الخداع.

فتح القلعة

وهاج المسلمون والسامري وحاصروا القلعة بسنتين متتاليين حتى اضطر البرتغاليون ترك هذه القلعة والخضوع أمام السامري، ويبين الشاعر فتح هذه القلعة:

فحاصروا القلعة نحو سنتين ونبشوا الخندق بين الجهتين
وأهل كل جهة في جهته مرابط في يومه وليلته
ثم رموا بالمنجنيق والطفق حتى أبادا بهما كل طبق
فاجتهدوا في الحرب مثل النمر ولم يملوا من هلاك العسكر
حتى سمعنا أنه في ليلة قد مات ألف عسكر في ساعة
فترك القلعة ليلا وهرب بنفسه لما رأى من العطب
وكان فتحها بمصض المنة عام ثلاثين وتسعمائة[8]

الاضطهاد على المسلمين

ثم ذهب البرتغاليون إلى كوشن، وبنوا في أرضها قلعة أخرى، وبعد ذلك أسرحوا على المسلمين أشد العذاب تقشعر منه الجلود وتذوب له القلوب، وأحاطوا المسلمين من أمامهم ووراءهم وجنوبهم وشمالهم بفتنات الرذيلة، ونحن نستطيع أن نفرق العذاب نحو المسلمين إلى صورتين: فعوق الركوب فوق البحر لا سيما للحاج والمعتمر

وأحرق البلدان مع مساجد وصير الخلق له كالأعبد

في البحر: البرتغاليون انتزعوا احتكار التجارة من أيدي المسلمين، ومنعوا السفن المتجهة إلى مكة المكرمة، ووجبوا أوراقهم الأجوزة للسفر في البحر، وإن سافر المسلمون دون أوراقهم أخذوا السفينة وعذبوا من فيها أشد عذاب ومع ذلك عملوا لرد المسلمين إلى النصرانية كما بينه الشاعر:

وكل من سافر دون خطه في مركب عذبهم بسخطه
يكتب في التخط جميع ما فيه حتى سلاحهم وراس من فيه
عبارة الخطوط إن المسلمين عبيده الملوك بالمسلمين
وقصده الأعظم جعل المسلمين في دينهم أو قتلهم يا مسلمين[9]

في البر: هجم البرتغاليون على المسلمين في بيوتهم ومساجدهم وأحرقوا كلها، وعذبوا الرجال والنساء في جميع حالهم في داخل البيت وخارجها، وإليه يشير الشاعر:

ومنعوا للمسلمين الطرقا برا وبحرا لم يزالوا فرقا
فصار يمشي الناس فوق الجبل لكن يمرون بها بالوجل
وأحرقوا المصحف والمساجدا ثم بنوا لهم بها المعابدا
ونبشوا بظلمهم قبورا وعمروا بها لهم قصورا
وهتكوا لحرمة النسوانا بين محارم وزوج عانى[10]

القيم اللغوية والأدبية

اللغة بين يديه كالشمع طواعية وهو مالك زمامها ومتسلط عليها وواقف على أدق أسرارها ومتعمق في كل مناحيها، ونستمتع من أبياته الأغراض الأدبية الهامة.

المدح على السامري: صب الشاعر الثناء على السامري في نصره للمسلمين في المقاومة ضد الاحتلال البرتغالي في الوقت الذي يبعد فيه الملوك المسلمين من حمايتهم، وقام بعناية المسلمين رغم أنه الملك الهندوكي، ومن أبياته التي مدح فيها السامري:

لا يأخذ المال بغير جرم وليس يؤذي أحدا بظلم
لا يأخذ البلدان ممن دونه وإن عصوا يغفوا بما يهدونه
ذو الرأي والتدبير والشجاعة والصبر والعفو لدى الشفاعة

الهجاء على الملوك: هجا على أمراء البرتغاليين مثل أندونيو، والملوك الذين أهملوا من المسلمين مثل ملك تانور، كما قال:

لأنه ذلك الشخص ذا الوجهتين قد مد كفه إلى الجهتين
وأنه يبذل ما في يده
يجعل كل من رأى في يده

الرثاء على المسلمين: يذكر الشاعر الأعمال الرذيلة والشنيعة من جهة البرتغاليين نحو المسلمين، ويرثي عليهم:

ويقتل المسلم لمنشار وبعضهم بكلب ونار
وتارة بالحبس والدخان ورملة بالخيل والصيانة

الخاتمة

ومما لا شك فيه أن هذه القصيدة مصدر هام للمؤرخين لدراسة حال المسلمين في مقاومة البرتغاليين، ومرجع خاص لمستمتعي الشعر العربي بغزارة من الكنوز الأدبية. أسلوبه جريء وصريح وحازم يشبه بعجيج البحر واندراء السيل. وصب المؤلف مهاراته ونبوغاته في كتابه الشهير حتى عبر حدود البلاد بصيته الحميد.

المراجع:

1) د. ويران محي الدين الفاروقي، الشعر العربي في كيرالا مبدأه وتطوره، مكتبة عربنت، كاليكوت، ص-79.

2) د.سلينة .أن، حركة المقاومة لعلماء كيرالا كما تنعكس في مؤلفاتهم العربية(رسالة الدكتوراه)، قسم العربية –جامعة كاليكوت، ص-113،114،.

3) نفس المرجع ، ص-116.

4) د/ زهر ابي ماتومال و الأستاذ كلنجاتودي ، تراث مسلمي مليبار (ترجمة كتاب K.K.N Kurup) ،معهد مليبار للبحوث والتنمية ، ودكرا، ص-32.

5) نفس المرجع ، ص-35.

6) د.سلينة .أن، حركة المقاومة لعلماء كيرالا كما تنعكس في مؤلفاتهم العربية (رسالة الدكتوراه)، قسم العربية –جامعة كاليكوت، ص-121.

7) نفس المرجع ، 125.

8) نفس المرجع ص-129.

9) نفس المرجع،ص- 132.

10) نفس المرجع،ص- 138